اقصوصتنا

بقلم اسمى طوبجي

كتّاب القصة القصيرة اليوم في جدل ... لقد اتفقوا على انها يجب ان تكون من صميم الحياة، بعيدة عن الخيال الشعري الذي لا يمت الى الواقع بصلة ؛ ولكنهم اختلفوا في ماهيتها : رأى بعضهم ان تلك التي تحتوي على حادثة كاملة ، وعقدة ، ومفاجأة ، وغير ذلك من ركائز الفن القصصي، قد انتهى عهدها؛ ويكفي الكاتب ان يرسم صورة او يحلل شخصية فتكون القصة .. بينما يرى غيرهم عكس ذلك .

ولكلٍ من الفريقين وجهة نظره، وكلهم يرى في انتاجه فلذات اكباد لا اجمل ولا ابدع .. غير اننا، معشر القراء، لنا حق ابداء الرأي في الموضوع، ما دمنا نحن الذين نلتهم ما يقدم لنا .. ونحن الذين نشعر بما تهضم معدنا او لا تهضم ...

ولقد استمتعت قبل الآن بالاقصوصة غير العربية من مصادرها او مترجمة .. فلما ابتدأت اقصوصتنا تأخذ طريقها درج كتابها في مبدأ الامر على منهج واحد هو كتابة اقاصيص الغرام وحسب، ثم كتابتها على نسق واحد حتى لتكاد تعرف كيف ستنتهي القصة وانت في منتصف حوادثها ؛ غير ان هؤلاء الكتاب ابتدأوا في الآونة الاخيرة يخرجون الى العالم الواسع ليكتبوا عن غير الغرام .

على ان هنالك بادرة تلفت النظر وهي ان معظم ما يكتب اليوم يصح ان يسمى صورة لا اقصوصة .. والتشبيه حقيقي .. فانت تقف امام لوحة قد تكون من روائع الفن، ولكنها على كل حال صورة لا تحدثك بقصتها كاملة .. خذ موناليزه مثلاً : انك ترى امرأة فاتنة في عينيها عمق وحول فمها مشروع بسمة حائرة محيرة .. وعليك اذا كنت لا تعرف شيئاً عنها ان تتم القصة من عندك .. ما سرّ هذه البسمة الغامضة ..؟ اكانت المرأة عاشقة سعدت ام تعست ..؟ اهي شخصية حقيقية عاشت في حياة الفنان ام انها مجرد صورة تخيلها ..؟ ثم تعود الى الكتب لتعرف القصة كاملة .

ان كتاب الاقصوصة اليوم يفعلون ما يشبه هذا مع القارىء .. يقدمون له شخصية تتأرجح في تيار من احداث ثم يتركون له تسيير هذه الشخصية في الاتجاه الذي يريده هو ، وبالتالي اتمام القصة من عنده .

وقد يكون لصاحب الريشة عذره لانه لا يستطيع اكثر من هذا .. يضع كل ما يمكنه من ايضاحات في النظرة والوقفة وحركة اليد او البسمة .. اما صاحب القلم فما عذره .؟

يرى بعضهم ان شرح كل شيء يفوّت على القارىء متعة الحدس والاستقصاء.. فهل الحدس والاستقصاء من مكملات المتعة ام من اسباب محقها ..؟

ان اصحاب هذا الرأي ينسون امرين اثنين : اولهما ان قارىء القصة، وهو على الغالب من جمهرة الشعب ، انما يقرأها للمتعة .. يأخذها معه في دقائق فراغه ، ويجلس او يستلقي على سريره ليريح نفسه من عناء يومه ويمتعها بقصة يتتبع حوادثها بشغف ليرى كيف تنتهي .. فاذا ما وصل الى نهاية ليست بالنهاية ، شعر بالخيبة فاطبق الكتاب الى غير عودة .

اما الامر الثاني فهو ان لاهل هذا العصر نفسيتهم المتعبة .. اتعبتها كثرة المشاغل والمشاكل .. ان الناس اليوم يركضون ولا اقول يعيشون .. يركضون من الفجر حتى المساء ويصطدمون بمشاكل تثير اعصاب الملائكة .. فليس المفروض فيهم بعد ذلك ان يعملوا في بوليس سكوتلانديارد ليحدسوا ماذا حدث لاشخاص القصة وكيف انتهت .

لقد كان هذا يصلح لاجدادنا .. يعودون قبل غروب الشمس الى بيوتهم ويجلسون جيرانا واقارب حول الموقد يقرأون على ضوء القنديل فصولاً من قصص الزير وابي زيد الهلالي وعنترة ، ثم يتناقشون في مصيرهم، هل سيخرج ابو زيد من سجنه ؟ هل يتزوج عنترة من عبلة ؟.. الى آخر ما يقتلون به الوقت من مناقشات .. اما نحن فكان الله في عوننا .. ان وقت القراءة عندنا هو شيء يقتطع من راحة اجسادنا .

هذا في رأيي حال الجمهور لا نخبة العلماء والمفكرين .. والاقصوصة انما تكتب للجمهور اكثر مما تكتب للعلماء والمفكرين على ما اعتقد .. ثم اننا على كل حال اطفال كبار لا نزال في تلهفنا وشوقنا كما كنا يوم كنا نجلس حول الجدة نقول: «إحكي لنا حكاية ياجدتي » فاذا ما ابتدأت ثم حاولت ان تقطع حديثها فتحنا عيوننا على اتساعها وصحنا: «ثم ماذا ياجدتي؟»

ذلك هو رأيي كقارئة في القصة المبتورة التي اتمنى ان يسميها اصحابها صورة تمييزاً لها عن القصة الكاملة ولئلا يحكم الجمهور على الاقاصيص حكماً واحداً فيقول مع الاستاذ مارون عبود.. لقد كتب لنا كتّاب القصة القصيرة كل شيء — الا القصة».

وثمة شيء آخر ينقص معظم اقاصيصنا الا وهو المؤثرات..

امرأة على درب

أبصرتها تغزل أوهامها ... فوق طريق غامر الظل
تنظر للماضي.. وقد كفنت ... تلاله في غيهب الليل
مجنونة الاغراء . كم رعشة ... حمراء في أعماقها تغلي
وشعرها الثائر يبدو كما ... تموّجت سنابل الحقل
لكنني أبصر في عينها ... طهراً يرى امثاله ... مثلي
أصفى من الينبوع، من قطرة ... فجرية ، من بسمة الطفل !

***

والتفتت صائحة في الدجى ... يا أنت !.. قد عذّبني غُلّي
فكّ قيودي. أصدأت معصمي ... وانتحرت مراوح الظل
فجر شبابي قد غدا مسرحا ... للبوم ، والغربان ، والسل
فقدت ازهاري فما في يدي ... إلا بقايا عبق الفلّ
وعوسجات داميات الرؤى ... كاللعنة السوداء ، كالويل
لكني أذرف دمعي هنا ... أروي به زنابق الليل

أبكي هنا وحدي. وكم كرمة ... اضحت وقوداً للأسى مثلي
أذوت ولم تزه عناقيدها ... وودّعتها أدمع الطل
تل من الآلام أمشي به ... مصلوبة ... أنوء بالحمل
يرمقني كل الورى ساخراً ... حتى عيون الليل من حولي
تجذبني للقاع مهتاجة ... مجنونةً عواصف السيل
كأنني بين حنايا الدجى ... عمياء.. تهوي في دجى الوحل
أنغص أيامي هنا .. أدمعا ... يتيمة .. في هيكل الذل
أغزل لليل عباءاته ... ويغزل الليل هنا ... ظلي !
كم نجمة تبكي عشيقا هوى ... منتحرا.. من غير ما وصل..
كئيبة تذرف أضواءها ... فمن لقلبي في الهوى من لي ؟
لم يبق في القاع سوى قطرة ... اخشى عليها لافح الهول
انا التي فوق طريق الدجى ... أبيع للشارين في ذلّ
.. أصبحت في نأي الدجى عنوة ... من غير ايقاع ولا ظلّ

القاهرة

محيي الدين فارس

لقد خرج كتابنا كما قلت من نطاق القصة الغرامية إذ رأوا في العالم الواسع احداثاً كثيرة تستحق الاهتمام فاهتموا بها ... ولكنك اذا ما قرأت لكبار قصصي الغرب وقابلته بما عندنا رأيت الفرق واضحاً .

•

خذ تشيخوف مثلاً واقرأ له قصة « فانكا » او « رسالة الى جدي » وانظر كيف يهتز كيانك لها .. انه يصور لك كيف اثارت عشية الميلاد شجون الصبي وهاجت ذكرياته .. لقد ارسله جده الشيخ، قريبه الوحيد في الدنيا ، ارسله من القرية الى العاصمة ليشتغل عند صانع احذية فشقي الصغير.. ثم جلس يحلم بالاعياد التي كان يذهب فيها مع جده الى الغابة ليقطعا شجرة صنوبر للميلاد ويزيحا الثلوج عنها وحولها الكلبان المحبوبان يتراكضان.. يحلم كيف كان الجد يضع العطوس في انفه ويهب بطاهيات منزل السيد: «اتردن عطوساً..؟» ثم يعطين فينهمكن في العطس وجد فانكا يضحك مسروراً ويصرخ «هلكت من الصقيع..» ثم يضع العطوس للكلبين ايضاً فتكون حفلة عطاس مضحك .

ويظل الصغير يصور آلامه في الرسالة .. كيف هزه معلمه الجديد من شعره لهفوة.. وكيف وضعت معلمته رأس السمكة في فمه لانه بدأ بتقشيرها من ذنبها .. وكيف فقد الصغير كل حنان هنا بعد المعاملة الحنون التي كان يلاقيها من السيدة القديمة التي حملته الى القصر يوم ماتت امه بعد ابيه ليكون بجانب جده عندها .. وكيف حنت عليه كامّ ثم يختم رسالته هكذا :

« اتوسل اليك يا جدي العزيز - من اجل المسيح - ان تنقلني من هذا المكان .. اشفق على اليتيم التعس.. ان كل من في البيت يضربني وانا اشتهي الطعام ولا أنفك عن النحيب وذرف الدموع .. لقد ضربني معلمي مؤخراً بقالب حذاء على رأسي فوقعت ولم استطع النهوض الا بكل مشقة .. آه لقد ضيعت حياتي .. انها اسوأ من حياة الكلاب .. لا تعط «مزيكتي» لاحد.. واهد سلامي الى هيلين وايفور الاكتع والسائق ساشا .. احضر يا جدي احضر وابق لحفيدك المطيع ايفان ».

ويختم الكاتب الكبير فيصور لنا كيف طوى الصبي الرسالة واشتري لها طابعاً واحداً بالكوبيك الوحيد الذي معه .. وكيف كتب على غلافها - الى قرية جدي - ثم حك رأسه بالريشة واضاف - كونستانتين ماكاريتس - وكيف هب من مكانه واختطف قبعته ووضعها على رأسه وهرع الى الشارع بقميصه ساهياً عن لبس معطفه ثم اسقط الرسالة في صندوق قالوا امامه مرة ان الرسائل تجمع منه وتحمل على زحافات تجرها خيول مطهمة ترن في اعناقها اجراس ويقودها رجال سكاري لتوزع على كل انحاء العالم .. ثم عاد فانكا ليغمض جفنيه ويحلم بجده وقد استلم الرسالة واسرع اليه.

هذه اقصوصة مبتورة ولكنك تنتهي من قراءتها فلا تتساءل هل جاء جد الصبي صدفة - والا فماذا حدث للصغير بعد ذلك ؟ تقرأها فتجد نفسك امام صورة جياشة تثير الشجون .. وتجعلك تتساءل : لماذا يجور الناس على هؤلاء الاطفال ؟. كم من آلاف منهم يودون ان يكتبوا ما كتب فانكا لجده ليلة الميلاد ؟. من الملوم عن مآسي هؤلاء الصغار؟. كيف نخفف آلامهم ؟.. وعلى الجملة تتركك وقد استطاع الكاتب ان يهز كيانك ويثير شجونك.

ذلك رأيي كقارئة تتمنى للاقصوصة العربية التي سارت شوطاً كبيراً الى الامام ان تستمر في سيرها بحيث تصبح في مستوى القصة العالمية الراقية .. وبحيث ترتفع بذوق الجمهور وتضرب على وتر انسانيته .

اسمى طوبي